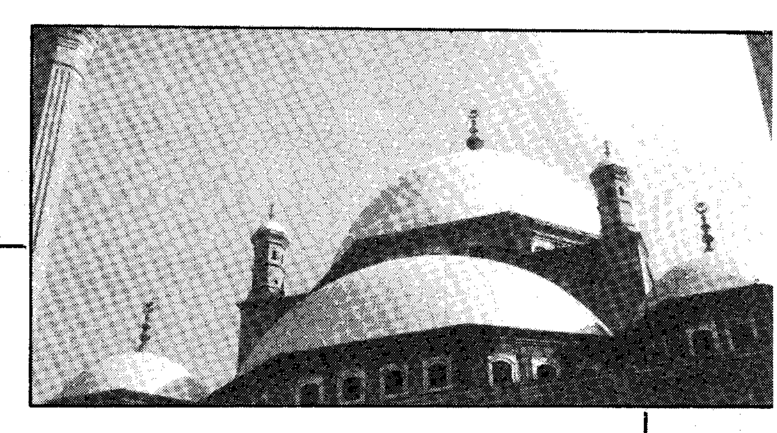


وثائق القلعة

محمّد علي في الجزيرة العربية وعلاقاته بالخليج العربي ١٨٠٧ - ١٨٤٢

في عام ١٩٧٢ ، ولمدة ثلاث سنوات ، استطاع مركز الوثائق والدراسات في أبوظبي الحصول على نسخة كاملة لمجموعة وثائق حملة محمد علي ونشاطه في الجزيرة العربية بين عام ١٨١١ وعام ١٨٤٠ من دار الوثائق القومية بالقاهرة . وتعرف هذه المجموعة من الوثائق باسم وثائق القلعة لأنها كانت محفوظة في قلعة محمد علي بالقاهرة . ومنذ عام ١٩٧٧ قام قسم الوثائق العثمانية بفهرسة وتلخيص هذه الوثائق على كارتات .

ومن حسن الحظ أن أغلب هذه الوثائق العثمانية مترجم الى اللغة العربية . كما أنها تحوى الكثير من الرسائل العربية بين محمد على وحكام امارات الخليج وسلطنة عمان . وقد استفاد من هذه الوثائق بالمركز العديد من طلاب الماجستير والدكتوراة وخاصة طلاب وطالبات وأساتذة المملكة العربية السعودية . كما قدم المركز لكثير من مؤسسات ومراكز



بقلم : الدكتور
محمد مرسي
عبدالله
«ابوظبي»

الخليج العربي الكثير من نسخ هذه الوثائق .

ان هذه الدراسة التي أقدمها عن محتويات هذه الوثائق والموضوعات العامة التي شملتها تعتمد على مقدمة كتالوج هذه الوثائق الذي أعده قسم الوثائق العثمانية في المركز . ومع أن نشاط محمد على العسكري قد بدأ في الحجاز بحملة ابنه طوسون عام ١٨١١ ، الا أن أقدم وثيقة في هذه المجموعة تبدأ عام ١٨٠٧ .

في منتصف القرن الثامن عشر

الميلادي (منتصف القرن الثاني عشر الهجري) قام الشيخ محمد بن عبدالوهاب بحركة اصلاحية غيرت معالم الحياة السياسية والدينية في الجزيرة العربية . وقد أطلق خصومه اسمه عليها فلقبت عند أعدائها باسم الحركة الوهابية . ونحن نعلم أن عقيدة الحركة الاصلاحية تنتسب الى طريق أهل السلف ، الذين عرفوا بأهل السنة والجماعة . وهم يتبعون في الأحكام مذهب الامام أحمد بن حنبل . وقد ركز الشيخ محمد بن عبدالوهاب في حركته الاصلاحية على التوحيد .

وتبدأ وثائق القلعة كما ذكرنا عام ١٨٠٧ بعد دخول السلفيين الى مكة والمدينة . وهرب الشريف غالب من الحجاز ، واثارته رجال الدولة العثمانية ضد السعوديين . كما أن منع المحمل السنوي والكسوة التي كان يرسلها محمد على كتقليد قديم الى أرض الحجاز في موسم الحج قد أثار علماء الحجاز وعلماء مصر . وأصبح هناك جو عدائى ضد رجال الحركة السلفية . وهذا ما سنلمسه في أثناء قراءتنا لهذه الوثائق .

وقد أطلق رجال الدولة العثمانية وحكومة محمد علي في مصر على تعاليم الشيخ محمد بن عبدالوهاب الوهابية غمزا لها كبدعة جديدة خارجة عن تعاليم الدين الاسلامي . ولكن علماء معاصرين له في العراق والشام واليمن رأوا في هذا الوقت المبكر في تعاليم الشيخ محمد بن عبدالوهاب إحياء للكتاب والسنة . ويستنكر رجال الحركة السلفية هذه التسمية . ويسمون أنفسهم المسلمين وأهل الاسلام وأهل الدين الحق . وأطلقوا على من اعتنق مبادئهم «الداخلون في الاسلام» ولقد وصف حسين بن غنام قتال جماعته لاعدائهم بالغزوات وسمى كتابة «روضة الأفكار والافهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوى الاسلام» .

ولقد واجه السلفيون غربى الدرعية عاصمتهم امارة الاشراف في الحجاز . وكان الحجاز تابعا اسميا للدولة العثمانية ، بينما قام بادارته الحقيقية الاشراف الذين كانوا يعتبرون أنفسهم سادة المناطق الداخلية بالجزيرة . وقد عاصر اشتباك الدولة السعودية الأولى مع الاشراف الشريف غالب بن مساعد الذى امتد حكمه من عام ١٧٨٨ وحتى عام ١٨١٣ . وكان للأمير غالب بن مساعد بسبب مكانته الدينية دور خطير في مقاومة السعوديين ، اذ كان دائم الاتصال بالباب العالي ومحمد على في مصر يثيرهما ضد الحركة السلفية .

مجموعة وثائق بدايات الحملة :

تبدأ هذه الوثائق برسالة من

«(محمد علي) الى أعتاب ولي النعم ، مؤرخة سنة ١٢٢٢ (١٨٠٧) حول عدم تمكنه من ارسال الصرة (عائدات الأوقاف) ، والكسوة والوظائف (المرتبات) المعدة من طرفه الى الحرمين الشريفين ، بعد اصدار علماء مصر وأشرافها فتوى بذلك ، لوقوعها في أيدي رؤساء مكة في السنة الماضية ، واحراق الخارجي (هكذا كان يسمى محمد علي رجال الحركة الاصلاحية السلفية في الجزيرة وقتذاك) محمل السعادة ، ونفي مستخدمي الدولة العلية ، وقضاة الاسلام ، وشيخ الحرم النبوي وسائر المقيمين في تلك الجهات الى مصر» .

فعندما وصل محمد علي الى منصب ولاية مصر ، كان نفوذ الدولة السعودية الأولى قد امتد ليشمل الحجاز ، وأصبح الحرمان الشريفان في حوزة آل سعود ، مما أزعج السلطان العثماني ، خاصة بعد فشل واليي كل من بغداد ودمشق في القضاء على الحركة السلفية ، فأرسل الباب العالي سنة ١٢٢٢ (١٨٠٧) أمرا الى محمد علي ، والي مصر ، بارسال حملة الى الحجاز لاسترداد الحرمين الشريفين من أيدي رجال الحركة الاصلاحية السلفية الذين سماهم وقتذاك ظلما (الخوارج الوهابيين) .

وفي مجموعة هذه الوثائق نرى كيف اتبع الباشا أسلوب التريث والمماطلة قبل بدئه تنفيذ الأمر رغم وعوده المتكررة لأسباب عديدة منها : سوء الأحوال الاقتصادية في مصر ، وتهديد الأمراء المماليك لولايته ، وألح في طلب عزل سليمان باشا عن ايالة الشام واسناد حكمها اليه ، فأكد الباب العالي له أن الاستجابة لمطالبه رهينة بتنفيذ هذه المهمة .

أخبار أحمد طوسون باشا :

في مجموعة هذه الوثائق نجد أخبار تعيين محمد علي نجله أحمد طوسون باشا قائدا عاما لحملة الحجاز ، وأرسل أول حملة بحرية الى الحجاز في ١٩ رجب ١٢٢٦ (١٩ أغسطس/آب ١٨١١م) ، تبعتها حملة برية بقيادة طوسون في غرة شهر رمضان سنة ١٢٢٦ (١٩ سبتمبر/أيلول ١٨١١) ، وفشلت قواته في احتلال المدينة المنورة ، وانهزمت أمام قوات عبدالله بن سعود عند مضيق الجديدة والصفره . وبعد ارسال الامدادات من مصر اليه ، واخضاع قبيلة حرب . تقدمت قوات طوسون نحو المدينة المنورة ، واقتحمت قلعتها في شهر ذي القعدة سنة ١٢٢٧ (نوفمبر / تشرين الثاني ١٨١٢) ، وتوجهت قواته البرية والبحرية الى جدة ودخلت مكة

المكرمة في ٢٠ محرم ١٢٢٨ ١٢٢٨ (٢٣ يناير / كانون الثاني ١٨١٣)، وسقطت الطائف وسيق عثمان المضايفي، حمو الشريف غالب بن مساعد، أمير مكة، مكبلا بالأصفاد الى مصر، وأرسل أهل الحجاز وعلماؤها، الى محمد علي، يبلغونه أنباء انتصار نجله.

وهنا نقرأ في هذه المجموعة كيف تلقى محمد علي، أوامر مشددة من الباب العالي لقيادة العمليات الحربية بنفسه، للقضاء على الدرعية، فغادر مصر بصحبة عشرين ألف (٢٠,٠٠٠) جندي من الأتراك والمغاربة الى الحجاز في ١٥ شوال سنة ١٢٢٨ (١١ أكتوبر / تشرين الأول ١٨١٣)، فاستقبله الشريف غالب، أمير مكة المكرمة وصحبه الى مكة حيث قام محمد علي بنفيه الى سالونيك رغم تقديمه يد العون لقوات طوسون، وتمكن سنة ١٢٣٠ (١٨١٤)، عقب وفاة الامام سعود بن عبدالعزيز، من احتلال تربة، وأخضع قبائل زهران، وأعدم أميرها بخروش، واحتل ميناء القنفذة، وأخذ طامي بن شعيب، أمير عسير، أسيرا، ثم عاد الى مكة المكرمة ومنها الى مصر في ١٥ رجب سنة ١٢٣٠ (٢٣ يونيه / ـ حزيران ١٨١٥). ونقرأ في هذه الوثائق أيضا أنباء مقاومة الامام عبدالله بن سعود لحملة طوسون بعد أن بلغته أخبارها من أهالي قرى القصيم في نجد، فأسرع اليه واحتدم القتال بين الطرفين، فلجأ طوسون الى عقد صلح مع الامام المذكور، والذى رغب فيه حقنا للدماء، وأرسل وفدا الى محمد علي لعرض رسائل الصلح، وعاد طوسون الى مصر.

وقائع ابراهيم باشا وسقوط الدرعية:

هنا نقرأ كيف عبأ محمد علي حملة بحرية بقيادة (نجله) ابراهيم باشا في ١١ رمضان سنة ١٢٣١ (٥ أغسطس / آب ١٨١٦) لفتح الدرعية، تلبية لطلب الشريف يحيى بن سرور أمير مكة، لقيام الامام عبدالله بن سعود بتحريض القبائل العربية في أطراف المدينة المنورة. فوصلت الحملة اليها، واتخذ ابراهيم باشا من الحناكية في ٧ محرم سنة ١٢٣٢ (٢٧ نوفمبر / تشرين الثاني ١٨١٦) معسكرا له. وسار الى الرس بعد نحو ستة أشهر قضاها في استمالة العربان، فحاصر قلعتها في ٢٥ شعبان ١٢٣٢ (١٠ يولية / تموز ١٨١٧) نحو ثلاثة أشهر ثم فتحها، وسقطت قريتا عنيزة وبريدة، واستسلم أهل شقرا في ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٣٣ (٢٢ يناير / كانون

الثاني ١٨١٨) بعد معركة ضارية واستولى على قلعة ضرما حربا، وأرسل آذان ألف وخمسمائة (١٥٠٠) قتيل سلفي الى مصر، وقصد الدرعية في غرة جمادى الأولى سنة ١٢٣٣ (١٩ مارس / آذار ١٨١٨) وفي حوزته أكثر من ستين ألف (٦٠,٠٠٠) قنبلة، فاشتبكت عساكر الفرسان والمشاة مع قوات الامام عبدالله بن سعود، وحاصرت العساكر قلعة الدرعية، وفي ٥ ذي القعدة سنة ١٢٣٠ (٦ سبتمبر / أيلول ١٨١٨) هاجمت القلعة وفتحتها بعد مقتل فيصل وتركي أخوي الامام عبدالله، وألف وأربعمائة (١٤٠٠) وهابي، وأرسل عبدالله بن سعود الى مصر في شهر محرم سنة ١٢٣٤ (أكتوبر / تشرين الأول ١٨١٨)، حيث أعدم في استانبول، وقام ابراهيم باشا بهدم القلاع والقصور في الدرعية.

وفي هذه المجموعة من الوثائق أخبار رحلة كابتن سادلير الى ابراهيم باشا في المدينة المنورة، تهنئه على انتصاراته، وتطلب مساعدتها لمحاربة القواسم في سواحل عمان، غير أن الباشا عاد الى مصر في ١٩ صفر سنة ١٢٣٥ / (٧ ديسمبر / كانون الأول ١٨١٩).

أخبار الامام تركي بن عبدالله وابنه فيصل:

تحكى مجموعة هذه الوثائق أخبار استرجاع النفوذ السعودي بعودة تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود الى نجد في أوائل سنة ١٢٤٠ (أواخر ١٨٢٤)، بعد تمكنه من قتل محمد بن مشاري بن معمر وأبيه، لتسليم مشاري بن سعود الى القائد التركي خليل آغا، ولفشل قوات محمد علي في القضاء على نفوذه الذي امتد الى شرقي شبه الجزيرة العربية. وجرت اتصالات بينه وبين كل من والي بغداد، وزعيم الثورة العسيرية، سعيد بن مسلط، الذي شغل محمد علي بأمرها وبحروبه في جزر البحر المتوسط، وشبه جزيرة الموره، وتطلعه الى بلاد الشام، فآثر اتباع أسلوب المهادنة نحوه.

وابان تسلم الامام فيصل بن تركي سدة الحكم في نجد سنة ١٢٥٠ (١٨٣٤)، تحكى لنا هذه الوثائق كيف عاود محمد علي التفكير في توسيع رقعة نفوذة لتشمل شبه الجزيرة العربية بأكملها، عقب نجاحه في الاستيلاء على بلاد الشام، واتخذ من وجوب تنصيب خالد بن سعود، الذى تربى في مصر، حاكما على نجد، ذريعة لمد نفوذه الى ذلك الاقليم،

وفشلت محاولات اقامة صلح بين فيصل وخالد ، ورغم وقوف الدولة العثمانية الى جانب فيصل بواسطة والي بغداد ، الا أنه اتبع اسلوب المهادنة ، وتمكن القائد خورشيد باشا ، بعد انزال فيصل الهزيمة بحملة اسماعيل بك ، من محاصرته في الدلم ، فاستسلم الامام فيصل حقنا للدماء ، وسافر مع بعض أفراد أسرته الى مصر في ٢ شوال سنة ١٢٥٤ (١٩ ديسمبر / كانون الاول ١٨٣٨) .

أخبار اليمن في وثائق القلعة :

وعلى صعيد آخر ، عاود محمد علي نشاطه في اليمن في الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، لفشله في احباط الثورة العسيرية ، وتمكن الانجليز من السيطرة على ميناء مخا «مفتاح اليمن» ، واثارة تركجه بيلمز ، زعيم ثورة الجند غير النظاميين ، لشيوخ اليمن ، فتمكنت قواته من الاستيلاء على بعض الأماكن في اليمن منذ سنة ١٢٥٠ (١٨٣٥) ، غير أن بريطانيا وقفت في وجه امتداد نفوذه الى اليمن ، واستطاعت في غرة ذي القعدة سنة ١٢٥٤ (١٦ يناير ١٨٣٩) من احتلال عدن ، وأرسل هنز ، المعتمد السياسي البريطاني الى امام صنعاء لتحويل تجارة البن اليمني من مخا الى هذا الميناء ، وبموجب معاهدة لندن (التي سيرد ذكرها) سحب محمد علي قواته من اليمن .

نشاط خورشيد باشا في منطقة الخليج :

امتد نشاط خورشيد باشا الى شرقي شبه الجزيرة العربية ، وشمال الخليج العربي ، واتخذ من الاحساء والقطيف سنة ١٢٥٤ (١٨٣٨) مركزا لمزاولة نشاطه بواسطة وكيله في البحرين والساحل العماني ومسقط ، وفي الكويت والعراق . وقد شملت مجموعة وثائق نشاط خورشيد باشا في الخليج معلومات هامة عن :

الاحساء والقطيف :

خشي أهالي الاحساء (بنو خالد) عودة النفوذ السعودي ، بعد رحيل ابراهيم باشا من نجد الى المدينة المنورة ، واخضاعهم لحكمه ، فعملوا عل مقاومته بمساندة السلطان العثماني لهم ، الذي أصدر أوامره الى محمد علي باشا باتخاذ الاجراءات الحربية السريعة للقضاء على عودة نفوذ آل سعود الى نجد ، فبعث الى ابراهيم باشا في المدينة المنورة طالبا منه اتخاذ «التداركات الكلية» ، غير أنه فشل في مهمته ، وتمكن الامام تركي بن عبدالله من توطيد نفوذه في نجد والاحساء . وعقب نجاح القائد

العام لنجد ، خورشد باشا ، في مهمة القضاء على حكم الامام فيصل بن تركي سنة ١٢٥٤ (١٨٣٨) ، بسط نفوذه على الاحساء والقطيف ، واتخذ من الاحساء مركزا لتحرك قواته نحو شرق الجزيرة العربية وشمال الخليج العربي ، بواسطة وكيله في المنطقة محمد رفعت ، الذى أدرك أهمية السيطرة عليها بعد قيامه بدراسة أحوالها وموانئها ، فسارعت بريطانيا الى الاستيلاء على جزيرة خارج سنة ١٢٥٤ (١٨٣٨) .

البحـرين :

تعود أهمية البحرين الى الناحيتين الاستـراتيجيـة والاقتصـاديـة ، باعتبارها ميناء للحسا والقطيف ، ومركزا لشراء الغلال ، كما أوضح ذلك محمد رفعت في تقاريره الى خورشيد باشا ، فلجأ الى اجراء مفاوضات مع الشيخ عبدالله بن أحمد آل خليفة ، أمير البحرين ، أسفرت عن عقد «معاهدة اتفاق» بين الجانبين سنة ١٢٥٥ (١٨٣٩) ، على أن تدفع البحرين زكاة قدرها ثلاثة آلاف (٣٠٠٠) ريال الى خورشيد باشا كسـابق عهدهـا زمن آل سعود ، وأرسل هينل ، المقيم البريطاني في بوشهر أثناء وجوده في قطر ، عدة رسائل الى أمير البحرين حول مخالفة الاتفاق لارتباطاته مع الانجليز ، وحرر رسائل مماثلة الى خورشيد باشا حذره فيها من التدخل في أمور البحرين ، ولم تلق رسائله أذنا صاغية ، وجرت محادثات بين شيخ البحرين ومحمد رفعت في ٢٣ صفـر ١٢٥٥ (٨ مـايو / آيـار ١٨٣٩) في قلعـة شيـخ البحـرين في خـورحسـان أحد بلدان ساحل قطر ، أسفرت عن توثيق ذلك الاتفاق ، ودارت اتصالات بين كل من خورشيد باشا ، والمقيم البريطاني ، حول معارضة بريطانيا لامتـداد نفوذه الى البحـرين أو التعرض للساحل العماني الذي أنذر شيـوخه ، ممـا أثار خـوف أهل البحرين .

البريمي والساحل المتصالح :

شهدت منطقة الساحل المتصالح في أعقاب سقوط الدرعية ، عملا حربيا قامت به بريطانيا ضد القواسم ، ونجح قائد حملتها الجنرال كير ، في احتلال رأس الخيمة سنة ١٢٣٥ (١٨١٩) وبعد تمكن خورشيد باشا من بسط نفـوذه عـلى الاحسـاء والقطيف ، وعقد وكيله الاتفاق مع أمير البحرين ، الشيخ عبدالله بن أحمد آل خليفة ، تطلع الى بسط نفوذه على منطقة البريمي وامارات الساحل العماني ، وأرسل سعد بن مطلق المطيري الى شيوخ الامارات حاملا

اليهم رسائل خورشيد باشا حول تنصيبه أميرا في البريمي من قبل خالد بن سعود ، بدلا من حمد بن يحيى ، والتقى عند رأس الخيمة بحمد ، وأخبره باخراجه من قبل قبيلة نعيم من قصر البريمي ، فاتجه سعد الى الشارقة سنة ١٢٥٥ (١٨٣٩) ، فاستقبله الشيخ سلطان بن صقر ، حاكم رأس الخيمة ، ووضع تحت امرته بيتا حصينا وقلعة ليقيم فيها ، وأرسل الى خورشيد طالبا منه تزويده بقوة من فداوية الفرسان والمشاة وحينما وصلت الشيخ سلطان بن صقر الامدادات ، وبضغط من المقيم البريطاني وجه الشيخ رسالة الى سعد ضمنها الاشارة الى وجوب مغادرته بناء على طلب هينل ، لاخلال ذلك بشروط معاهدة الصلح المبرمة بين مشايخ عمان وسركار (الحاكم العام) الانجليزي ، فانسحب سعد الى الاحساء سنة ١٢٥٥ (١٨٣٩) .

مسقط :

سادت العلاقة الودية بين كل من محمد علي باشا ، وسعيد بن سلطان امام مسقط ، الذي تعاون مع الانجليز في القضاء على تمرد قبيلة بني بوعلي في أرض - جعلان سنة ١٢٣٦ (١٨٢١) ، وأكد الامام في رسائله الثلاث المرسلة للباشا والى مصر ، سنة ١٢٥٥ (١٨٣٩) محافظته على العلاقة القائمة بينهما ، وقد عمد المقيم البريطاني هينل ، الى تحرير رسائل تحذير الى خورشيد باشا من التدخل في أمور عمان ، أو أرسال سعد بن مطلق المطيري الى منطقة البريمي ، وطلب من شيخ رأس الخيمة ، الشيخ سلطان بن صقر ، اعادة سعد الى القطيف بحرا .

الكويت والبصرة :

قام محمد علي بمحاولة للسيطرة على منطقة شمال الخليج العربي ، الكويت والبصرة ، لأهميتها الاقتصادية ، واعتبارها مركز تموين لمنطقة نجد ، اضافة الى أهمية موقعها التجاري ، وعندما بدأت تسوء العلاقات بين محمد علي باشا وبين الدولة العثمانية ، فكر في غزو شمال الخليج العربي بل والعراق ، لابعاد النفوذ العثماني عن تلك المنطقة ، وأرسل عيونه منذ سنة ١٢٣٧ (١٨٢٢) لتتبع أخبار البصرة وبغداد ، اللتين أصبحتا تمثلان مركزا مضادا لتحركاته في شبه الجزيرة العربية ، فمنذ وصول قوات خورشيد باشا الى منطقة الاحساء سنة ١٢٥٤ / (١٨٣٨) ، أرسل الى الكويت محمد أفندي ، وكيلا مصريا ، لشراء الغلال اللازم لقوات نجد ،

ولتزويده بالأنباء ، وصار نقل الغلال الى ميناء القطيف ، وطلب خورشيد باشا اصدار الأوامر اليه لتنفيذ خطته التوسعية بعد التحاق بعض القوات التركية ، الفارة من البصرة الى الكويت ، بقوات خورشيد باشا في نجد ، بصحبة الملازم محمد أفندي ، بعد ما قدم الشيخ جابر بن آل صباح ، أمير الكويت ، يد العون اليها ، ورغبة أهل العراق في مساعدة قوات خورشيد فور وصولها اليهم . للخلاص مما يعانون من الظلم والاستبداد ، كما جاء في تقرير الشيخ حمود بن جسار ، أحد علماء نجد ، المقيم في بغداد ، فتصدت له الدول الكبرى وأرغمته طبقا لمعاهدة لندن في ١٥ جمادى الأولى سنة ١٢٥٦ (١٨٤٠) على سحب قواته من جميع مناطق شبة الجزيرة العربية ، فأمر محمد علي خورشيد باشا باغلاق باب مصروفات هذا المشروع ، وسحب قواته والعودة بها الى مصر بعد تسليم زمام الأمور الى أمير نجد ، خالد بن سعود .

